٢٣

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾
وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾

(الصافات ١٤٥ : ١٤٦)

هذه الآية الكريمة جاءت فى الخمس الأخير من سورة الصافات، وهى سورة مكية، وآياتها اثنتان وثمانون ومائة بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لاستهلالها بقسم بالملائكة الأطهار الذين لاينفكون عن عبادة الله ـ تعالى ـ ويصطفون فى طاعته بأفضل مما يصطف كثير من عباد الله المكلفين من الإنس والجن فى الصلاة.

ويدور المحور الرئيسى للسورة حول عدد من القواعد الرئيسية للعقيدة الإسلامية، وفى مقدمتها الإيمان بالله ـ تعالى ـ وتوحيده التوحيد الخالص لذاته العلية، وتنزيهه عن كل وصف لايليق بجلاله من قبيل نسبة الشريك، أو الشبيه، أو المنازع، أو الصاحبة، أو الولد إليه ـ سبحانه وتعالى ـ، وغير ذلك من صفات المخلوقين؛ لأن الله ـ تعالى ـ منزه عن جميع صفات خلقه. ومن ركائز العقيدة الإسلامية فى سورة الصافات الإيمان بالله، وبملائكته، وبكتبه، ورسله، وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره؛ والإيمان بالوحى وحقيقته، وبالبعث بعد الموت وبحتميته وضرورته، وبالخلود فى الآخرة إما فى الجنة أو فى النار، وإنها لجنة أبدًا، أو نار أبدًا، كما أخبر بذلك خاتم الأنبياء والمرسلين ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ.

وفى سبيل الدعوة إلى الإيمان بهذه الركائز الإسلامية، والعمل على ترسيخها فى العقول والقلوب أشارت سورة «الصافات» إلى العديد من أشياء الكون وظواهره، ووظفتها فى الاستدلال على طلاقة القدرة الإلهية المبدعة فى الخلق، وفى الشهادة للخالق ـ سبحانه وتعالى ـ بالألوهية، والربوبية، والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، وبالقدرة على البعث، كما وظفتها فى إقامة الحجة على أهل العلم ـ فى زمن تفجر المعارف العلمية الذى نعيشه ـ بأن القرآن الكريم لايمكن أن

يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق، وبأن الرسول الخاتم الذى تلقاه كان موصولا بالوحى، ومُعَلَّما من قِبَل خالق السماوات والأرض.

وفى نفس الوقت، وظفت سورة «الصافات» هذه الإشارات الكونية فى تفنيد دعاوى المبطلين من أهل الكفر والشرك والضلال، وفى تطهير العقول والنفوس من هذا الكم الهائل من الخرافات والأساطير التى نسجتها أنماط عديدة من العقول المريضة عبر التاريخ، انطلاقًا من همزات شياطين الإنس والجن، وتخرصات المبطلين، وشهوات الطامعين فى شىء من حطام هذه الدنيا الفانية..!!

عرض موجز لسورة «الصافات»

استهلت سورة الصافات بقسم من الله ـ تعالى ـ بملائكته الكرام، وبعدد من الوظائف التى أمروا بها، والله ـ سبحانه وتعالى ـ غنى عن القسم لعباده، ثم يأتى جواب القسم بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ [الصافات: ٤].

وهو قرار إلهى يقتلع كل جذور الكفر والشرك والضلال من العقول والقلوب التى عششت فيها تلك الانحرافات الفكرية، وما أكثرها فى تاريخ البشرية الطويل، خاصة فى زمن الفتن التى تظلل أغلب أهل الأرض فى هذه الأيام..!!

وتشير السورة الكريمة إلى محاولات مردة الجن وشياطينهم لاستراق السمع عن أهل السماء، وأكدت أن الله ـ تعالى ـ قد سخر الشهب الثاقبة لتتبعهم ودحرهم، وتوعدهم ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بعذاب شديد.

ثم يتوجه الخطاب بعد ذلك إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ بالأمر الإلهى أن يسأل منكرى البعث، المستبعدين لإمكانية وقوعه أن ينظروا فى خلقهم من طين لازب، وأن يُقَدِّروا محدودية كل فرد منهم بحدود مكانه فى بقعة محددة من الأرض، وبحدود زمانه (أى أجله)، ومقارنة ذلك بخلق السماوات والأرض بأبعادهما المذهلة، وأعمارهما المتطاولة، فيدركوا أن الذى خلقهم من طين لازب، وحددهم بحدود المكان والزمان، وخلق الكون بهذا الاتساع، والضخامة فى الأبعاد، وتعدد الأجرام، وتنوع صفاتها، هذا الإله الخالق قادر على بعثهم، وبعث آبائهم الأولين وهم أذلاء صاغرون.

ثم تعرض سورة «الصافات» لموقف من مواقف الآخرة، وقد أطلقت صيحة

البعث وجميع الذين كانوا ينكرونه فى الدنيا، وكانوا يسخرون من إمكانية وقوعه، وهم يخرجون من قبورهم مشدوهين، فزعين، مذعورين، وهم يقولون: ﴿ يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ [الصافات: ٢٠].

فيسمعون الرد عليهم فى قول الله ـ تعالى ـ:

﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ [الصافات: ٢١ ـ ٢٤].

وتستطرد الآيات (الصافات: ٢٥ ـ ٧٤) فى استكمال عرض هذا المشهد، والكفار والمشركون، والعصاة الظالمون عاجزون عن مناصرة بعضهم بعضًا، والذين اتبعوا من المشركين وشركاؤهم يتلاومون، ويتبادلون تهم الضلال والغواية، وفى ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧) إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٣٣ ـ ٣٩].

وفى ذلك تأكيد لنبوة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، وشهادة من الله ـ تعالى ـ على صدق رسالته، وبرهان على وحدة رسالة السماء، وعلى أخوة الأنبياء والمرسلين ـ صلى الله وسلم وبارك عليهم أجمعين ـ، وهو فى الوقت نفسه رد إلهى جازم على الذين كذبوا ببعثته الشريفة، وتطاولوا على شخصه الكريم بأقلامهم الرخيصة، أو بألسنتهم البذيئة فى الإذاعات والفضائيات المأجورة الغربية من مثل «قناة الموت» المسماة كذبًا باسم «قناة الحياة» وادعاءاتها الباطلة، المختلقة والمفتراة وكلها مستمد من «كتاب الضلال» المسمى زورًا باسم «الهداية» والذى نشره الصهيونى المتنصر صموئيل زويمر ـ عليه لعنة الله ـ أو تستروا وراء شاشات «الشبكة العنكبوتية» كخفافيش الظلام ينفثون فيها جهلهم الفاضح، وأحكامهم الجائرة، وأحقادهم المريضة، وسمومهم البغيضة ضد الإسلام، وضد نبيه الكريم، وضد رموزه من عظماء المسلمين، بل ضد جميع المسلمين بما لايستطيع هؤلاء الأقزام

المأجورون أن يقولوه مواجهة، لجبنهم وعجزهم، وضعف حجتهم، وسقوط كل دعاواهم الباطلة. وهم يفعلون ذلك طمعا في الصد عن دين الله الخاتم الذي لايرتضي ربنا - تبارك وتعالى - من عباده دينا سواه، ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

ثم تقارن الآيات في سورة «الصافات» بين إكرام الله تعالى لعباده المؤمنين بتنعيمهم في جنات الخلد، وبالفوز العظيم برضاه - سبحانه وتعالى - وبين ما يلقاه كل من الكفار والمشركين المكذبين ببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ من عذاب في الدنيا، ونار جهنم في الآخرة، وهم يصطلون بجحيمها، ويأكلون من زقومها، وعليهم شوب من حميم.

وتستمر الآيات في هذه السورة المباركة مؤكدة أن أكثر الأمم السابقة على بعثة الرسول الخاتم ﷺ كانوا قد ضلوا ضلالا بعيداً على الرغم من إرسال عدد من الأنبياء والمرسلين إليهم، منذرين من مغبة الكفر بالله - تعالى - أو الشرك به، أو معصيته والانحراف عن المنهج الذي وضعه لاستقامة الحياة على الأرض، وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ (٧٢) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾

[الصافات: ٧١- ٧٤].

ولإثبات ذلك استعرضت سور «الصافات» في أربع وسبعين آية من آياتها [٧٥- ١٤٨] سير عدد من أنبياء الله ورسله منهم: نوح، إبراهيم وولداه: إسماعيل وإسحاق، موسى، وهارون، إلياس، لوط، ويونس - على نبينا وعليهم جميعًا من الله السلام -. وفي قصص هؤلاء الأنبياء والمرسلين تجلت معية الله - تعالى - لهم ولعباده المؤمنين، ورحمته بهم، وتعهده بنصرهم وبدحر أعدائهم من الكفار والمشركين والظالمين، والتنكيل بهؤلاء الضالين في الدنيا قبل الآخرة.

وكان من الفريد في قصص هؤلاء الأنبياء قصة نبي الله يونس ﷺ الذي لبث في قومه (أهل نينوى) ردحًا من الزمن يدعوهم إلى دين الله الخالص فلم يطيعوه، فهددهم بعذاب الله، وتوعدهم به، ثم خرج غاضبًا من بين ظهرانيهم من قبل أن يأذن الله - تعالى - له بذلك، وركب البحر وبدأت السفينة تترنح، وكادت أن

تغرق، فاقترع أصحاب السفينة على ركابها وخرجت القرعة على نبي الله يونس (ﷺ) فألقى به في البحر فالتقمه الحوت، ولكن مع ترديده هذا الدعاء المنجى من كل كرب: (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) استجاب الله - تعالى - لدعائه فلفظه الحوت بالعراء وهو سقيم، وأظله الله - تعالى - بشجرة من يقطين فنجاه وشفاه مما كان يعانيه، وهنا يبرز السؤال: لماذا كانت الشجرة من يقطين؟

وتعاود الآيات توجيه الخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ ليقوم بالرد على عدد من الخرافات والأساطير التي ابتدعها أهل الزيغ والضلال من الكفار والمشركين، والتي منها: الادعاء الباطل بوجود نسب بين الله - سبحانه وتعالى - وبين الجن، وأنه بناء على هذه العلاقة المختلقة بواسطة تصوراتهم السقيمة، ونفوسهم المريضة كانت الملائكة وقد ادعى هؤلاء المبطلون عليهم بأنهم إناث...!!

وكذلك الادعاء الباطل على الله - سبحانه وتعالى - بنسبة الصاحبة والولد إليه وهما من صفات المخلوقين، والله تعالى منزه تنزيهاً كاملاً عن جميع صفات خلقه، ولذلك قال عز من قائل:

﴿ فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون (١٤٩) أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون (١٥٠) ألا إنهم من إفكهم ليقولون (١٥١) ولد الله وإنهم لكاذبون (١٥٢) أصطفى البنات على البنين (١٥٣) ما لكم كيف تحكمون (١٥٤) أفلا تذكرون (١٥٥) أم لكم سلطان مبين (١٥٦) فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين (١٥٧) وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون (١٥٨) سبحان الله عما يصفون ﴾ [الصافات ١٤٩ - ١٥٩].

وتكرر الآيات في خواتيم سورة «الصافات» وعد الله لأنبيائه ورسله، ولجنده المؤمنين بالنصر والتمكين، وهو وعد حق، تعهد - سبحانه وتعالى - به، والله لا يخلف الوعد ولا الميعاد. ولذلك تطالب الآيات خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ باعتزال الكفار والمشركين؛ لأنهم يستعجلون نزول عذاب الله، وهو واقع بهم لا محالة، وفي ذلك يقول الحق - تبارك وتعالى -:

﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين (١٧١) إنهم لهم المنصورون (١٧٢) وإن جندنا لهم الغالبون (١٧٣) فتول عنهم حتى حين (١٧٤) وأبصرهم فسوف يبصرون (١٧٥) أفبعذابنا

يستعجلون (١٧٦) فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين (١٧٧) وتول عنهم حتى حين (١٧٨) وأبصر فسوف يبصرون﴾ [الصافات : ١٧١ - ١٧٩].

وتختتم سورة الصافات بتنزيه من الله - تعالى - لذاته القدسية موجهًا الخطاب إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ فيقول:

﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون (١٨٠) وسلام على المرسلين (١٨١) والحمد لله رب العالمين﴾ [الصافات : ١٨٠ - ١٨٢].

وفى ذلك تأكيد على ربوبية الخالق - سبحانه وتعالى -، وتنزيهٌ له - جل شأنه - عن كل وصف لا يليق بجلاله مما ادعى به كثير من المشركين، وتوقير لجميع رسل الله، وذكرهم بالسلام عليهم، وحمدا لله على فيض نعمه فى كل وقت وفى كل حين.

نبى الله يونس فى القرآن الكريم

جاء ذكر نبى الله يونس ﷺ فى القرآن الكريم ست مرات، أربع منها باسمه الصريح (النساء : ١٦٣، الأنعام : ٨٦، يونس : ٩٨، والصافات : ١٣٩)، والخامسة جاءت بكنيته : ذا النون (الأنبياء : ٨٧)، والسادسة جاءت بصفته : صاحب الحوت (القلم : ٤٨)، وتكريمًا له ﷺ سمى ربنا - تبارك وتعالى - إحدى سور القرآن الكريم باسمه وهى سورة «يونس».

وهذا النبى الصالح عرفه لنا المصطفى ﷺ باسم «يونس بن متى»، وذلك بقوله الشريف : «لا ينبغى لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى» (البخارى ومسلم)(١).

ويعرف نبى الله يونس بن متى ﷺ عند أهل الكتاب باسم «يونان بن أمتَّاى» (Jonah son of Amittai)، وكان الله تعالى قد بعثه إلى أهل نينوى، وهى محافظة فى أقصى الشمال الغربى من الجمهورية العراقية (التى ندعو الله - تعالى - أن يعجل بتحريرها من دنس الاحتلال الأنجلو أمريكى الصهيونى الصليبى الغاشم والبغيض، فى أقرب وقت ممكن إن شاء الله - تعالى). وتعرف محافظة نينوى اليوم باسم محافظة الموصل، ومدينة نينوى كانت عاصمة الإمبراطورية الآشورية بعد مدينة

(١) [صحيح] البخارى (٣٣٩٥ و٣٤١٦ و٧٥٣٩)، ومسلم ص (١٨٤٦).

آشور، ويرجع تاريخها إلى الألف الثالثة قبل الميلاد، وقد وصلت أوج ازدهارها بين القرنين التاسع والسابع قبل الميلاد، ولكنها دمرت حوالى سنة ٦١٢ ق.م. بعد غزو الميديين (The Medes) لها، وإن سكنتها بعض القبائل حتى العصور الوسطى. وبقيت أطلالها على الضفة الشرقية من نهر دجلة فى مقابلة مدينة الموصل تقريبًا، ولا يفصلهما إلا النهر. وكان أهل نينوى قد انتكسوا إلى عدد من الوثنيات القديمة وعبدوا الأصنام بعد أن عاشوا فترة على التوحيد الخالص لله، ثم بعث الله - تعالى - إليهم نبيه يونس ﷺ. وأقام فيهم ردحًا من الزمن يدعوهم إلى دين الله، ويقدم لهم الدليل تلو الدليل، ويقيم عليهم الحجة تلو الحجة، فأطاعوه واتبعوه، ثم عصوه، وكذبوا دعوته، فهددهم بعذاب الله، وتوعدهم به، ثم خرج غاضبًا من بين ظهرانيهم قبل أن يأذن الله - تعالى - له بالخروج، فلامه الله - تعالى - على ذلك، بقوله - عز من قائل -:

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾

[الصافات: ١٣٩-١٤٨].

وفى مقام آخر قال تعالى:

﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾

[الأنبياء: ٨٧-٨٨]

ومعنى هذه الآيات المباركات أن يونس ﷺ حين خرج من نينوى مغاضبًا لقومه ركب البحر فى محاولة للابتعاد عنهم، ولكن القرآن الكريم لم يحدد لنا اسم البحر، ولذلك تساءل المفسرون: هل من الممكن أن يكون هو نهر دجلة؟، أو إحدى البحيرات القريبة من نينوى مثل بحيرة أرميا فى أقصى الشمال الغربى من إيران؟ أو البحر الأبيض المتوسط؟ والله - سبحانه وتعالى - هو وحده الذى يعلم حقيقة هذا

الوسط المائى الذى التقم أحد حيتانه العملاقة نبى الله يونس ﷺ . ومع هول المفاجأة ظل نبى الله يونس يردد هذا الدعاء المنجى : «**لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين**» فاستجاب الله لاستغاثاته، وأمر ذلك الحوت أن يلفظه إلى جانب البر حيا، وخرج يونس ﷺ سليمًا، معافى، فاهمًا لحقيقة الدرس الذى كان من أهدافه ألا يتصرف فى شأن من شئون الدعوة بغير أمر من الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

وتروى لنا الآيات بعد ذلك أن الحوت لفظ عبد الله ونبيه «يونس بن متى» ملقيا به على الساحل، وهو فى حالة من الإعياء والذهول والهزال الشديد. فأنبت الله ـ سبحانه وتعالى ـ عليه شجرة من يقطين، أظلته، وسترته، وربما تناول شيئًا من ثمارها فعافاه الله تعالى من سقمه، وغفر له ذنبه، وهو ـ سبحانه ـ غفار الذنوب.

وهذه المعجزة التى أحدثها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ لنبيه يونس ﷺ معجزة إلهية حقيقية، والمعجزات لا تعلل، ولاتفسر، لأنها خارقة لقوانين الدنيا، وإن كان العلم يؤكد إمكانية ابتلاع أحد حيتان البحر العملاقة لرجل، وبقاء هذا الرجل حيا فى فمه لبعض الوقت دون أن يصيبه أذى كبير، ثم يلفظه الحوت، خاصة إذا كان من نوع الحوت الأزرق (الهركول العملاق)، الذى يبلغ طوله نحو العشرين مترًا، ويتميز بأنه لا أسنان له، وحلقه أضيق من إمكانية ابتلاع جسد الرجل.

ثم رأى قوم يونس، بعد مغادرة نبيهم لأرضهم وهو مغاضب لهم أن إرهاصات العذاب الذى توعدهم به قد بدأت فى الظهور، فسارعوا بالتوبة إلى الله وبالإنابة إليه حتى كشف عنهم العذاب وعادوا مسلمين لله، موحدين لجلاله، مقيمين لشعائره، وفى ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ :

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس : ٩٨].

وبعد خروجه من ابتلاءاته عاد يونس ﷺ إلى قومه وقد شفاه الله وعافاه، فوجدهم قد نبذوا الأصنام والأوثان. وعادوا إلى توحيد الله وعبادته وحده بما أمر، فسعد بهم وسعدوا به، وعاش بينهم داعيًا إلى الله على بصيرة حتى لقى ربه راضيًا مرضيًا. وعاش أهل نينوى على التوحيد الخالص لله إلى ما بعد وفاة نبيهم يونس ﷺ، ثم عاود الشيطان الوسوسة إليهم حتى اجتالهم مرة أخرى، وحرفهم عن

دين الله، وأعادهم إلى وثنياتهم الأولى فضلوا ضلالاً بعيدا، وإن بقى فيهم بعض الأحناف الذين احتفظوا ببقايا الحق القديم، وكان منهم «عداس» الذى شهد لرسول الله ﷺ بالنبوة حين مر ﷺ ببستان كان يعمل فيه فى طريق العودة من الطائف إلى مكة المكرمة.

من الإشارات العلمية فى سورة الصافات

جاء فى سورة الصافات عدد من الإشارات العلمية التى يمكن إيجازها فى النقاط التالية:

(١) الإشارة إلى مابين السماوات والأرض، على ضخامة أبعاد السماوات، وضآلة أبعاد الأرض، مما يشير إلى مركزية الأرض بالنسبة إلى الكون، وقد أشار إليها المصطفى ﷺ فى أكثر من حديث، ويعجز العلم الكسبى عن تحقيقها. ووجود إشارات فى التراث القديم لتلك الحقيقة قد يكون من بقايا الوحى السماوى الذى أنزله ربنا ـ تبارك وتعالى ـ قبل بعثة النبى الخاتم والرسول الخاتم ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ.

(٢) وصف الله الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ لذاته العلية بأنه رب المشارق، وفى هذا الوصف من الحقائق العلمية مايشمل كلا من كروية الأرض، ودورانها حول محورها أمام الشمس، وميل هذا المحور على مستوى الدوران، وجرى الأرض فى مدار محدد لها حول الشمس.

(٣) الإشارة إلى أن زينة السماء الدنيا هى الكواكب، وفى مقام آخر يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: **﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير ﴾** [الملك: ٥]. وإجماع أهل العلم على أن المقصود بالتعبير القرآنى مصابيح هو النجوم، والجمع بين النجوم والكواكب، ورجوم الشياطين ـ الشهب والنيازك ـ فيه إشارة إلى وحدة البناء فى الكون، مما يشهد لله الخالق بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، وذلك لأن الله ـ تعالى ـ يخلق النجوم من دخان السماء، وأنه ـ سبحانه وتعالى ـ يعيد النجوم بانفجاراتها إلى دخان السماء، والكواكب والشهب والنيازك مفصولة أصلاً عن النجوم، أو هى من نواتج انفجار النجوم.

(٤) الوصف القرآنى للشهاب بأنه شهاب ثاقب، بمعنى ثقبه لظلمة السماء ثم

للغلاف الغازى للأرض، وذلك بتحركه بسرعات كونية هائلة قبل احتراقه بالكامل، وفى ذلك إشارة إلى تلك السرعات الفائقة التى يتحرك بها كل من النيازك والشهب.

(٥) الإشارة القرآنية إلى خلق الإنسان من طين لازب تؤكدها كل الدراسات العلمية المتقدمة لجسم الإنسان وتركيبه الكيميائى والمعدنى.

(٦) ذكر عدد كبير من الأنبياء والمرسلين السابقين على بعثة الرسول الخاتم - صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين -، وسرد جوانب من قصصهم وأحوال أممهم بدقة تاريخية مذهلة، ودون أدنى خطأ واحد، وذلك من قبل أكثر من ألف وأربعمائة من السنين، وفى أمة لم تكن أمة تدوين، وهذه الدقة التاريخية يفتقر إليها ما بقى بين أيدى الناس اليوم من ذكريات صحائف أهل الكتاب وجميع كتب التاريخ.

(٧) اختيار شجرة من يقطين - دون غيرها من أنواع النباتات - وجعلها ستراً وظلالة لنبى الله يونس ﷺ بعد أن أنقذه الله - سبحانه وتعالى - من فم الحوت الذى كان قد التقمه، مما يشير إلى ما فى اليقطينيات من فوائد علاجية وغذائية لمن كان فى مثل ظروف نبى الله يونس ﷺ فى أثناء ابتلائه بالحوت.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر حديثى هنا على النقطة الأخيرة فى القائمة السابقة، وقبل الوصول إلى ذلك لابد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين فى شرح دلالة هاتين الآيتين الكريمتين رقم [١٤٥، ١٤٦ من سورة «الصافات»].

من أقوال المفسرين

فى تفسير قوله - تعالى -:

﴿ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾

[الصافات: ١٤٥ - ١٤٦].

* ذكر ابن كثير - يرحمه الله - ما مختصره: «﴿فَنَبَذْنَاهُ﴾ أى ألقيناه ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ قال ابن عباس: هى الأرض التى ليس بها نبت ولا بناء، قيل على جانب دجلة،

وقيل بأرض اليمن، والله أعلم، ﴿وهو سقيم﴾ أى ضعيف البدن. . . ﴿وأنبتنا عليه شجرة من يقطين﴾ قال ابن مسعود وابن عباس: (اليقطين) هو القرع، وقال سعيد بن جبير: كل شجرة لا ساق لها فهى من اليقطين، وفى رواية عنه: كل شجرة تهلك من عامها فهى من اليقطين، وذكر بعضهم فى اليقطين أى الدباء أو القرع فوائد منها: سرعة إنباته، وتظليل ورقه لكبره ونعومته، وأنه لايقربه الذباب، وجودة تغذية ثمره، وأنه يؤكل نيئا ومطبوخا بلبه وقشره أيضًا، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يحب الدباء، ويتبعه من حواشى الصفحة.

* وجاء فى كل من تفسير الجلالين، والظلال، وصفوة البيان لمعانى القرآن، والمنتخب فى تفسير القرآن الكريم وصفوة التفاسير كلام مشابه لكلام ابن كثير، ولا أرى حاجة إلى تكراره.

من الدلالات العلمية للآيتين الكريمتين

بتأمل هاتين الآيتين الكريمتين (١٤٥، ١٤٦ من سورة «الصافات») يتبادر إلى الذهن اختيار الله - سبحانه وتعالى - للتعبير القرآنى شجرة من يقطين لحماية عبده ونبيه يونس بن متى - على نبينا وعليه من الله السلام - بعد أن نبذه الحوت بالعراء وهو سقيم، أى: وهو منهك القوى من شدة المرض، وهذا التنكير فى الإشارة إلى شجرة اليقطين يفيد بأن الشجرة من جنس اليقطين الذى عرفه العرب ومنه كل من قرع الكوسة، والحنظل، وليست نوعًا محددا بذاته.

واليقطين ينتمى إلى مجموعة من النباتات العشبية، الزاحفة، التى تفترش الأرض، ومنها ماله قدرة على التسلق بواسطة عدد من المحاليق الملتوية، التى تخرج من جوانب الساق بالقرب من أعناق الأوراق، ومنها الحولى، ومنها المعمر، وتمتاز كلها بالسيقان العشبية الخماسية الأضلاع، وبالأوراق الكبيرة، الراحية أى الشبيهة براحة الكف، وهى مفصصة، ومتبادلة، ولها أعناق طويلة، بغير أذينات؛ وتمتاز بالوبر الكثيف الذى يغطى كلاً من السيقان والأوراق. وبالزهور الأحادية الجنس - أى المؤنثة أو المذكرة - التى تخرج من آباط الأوراق، وبالثمار اللبية/ الشحمية، المتباينة الأشكال، والأحجام، والألوان، والطعوم والروائح، والحاوية لأعداد من البذور.

وهذه النباتات تنطوى كلها فى عائلة واحدة تعرف باسم العائلة اليقطينية أو القرعية **(Family Cucurbitaceae)**، وفى رتبة واحدة تعرف باسم رتبة اليقطينيات. أو القرعيات **(Order Cucurbitales)**، وتشمل العائلة اليقطينية حوالى المائة جنس، يمثل كل منها بعشرة أنواع على الأقل، أى تحتوى على حوالى الألف نوع، تنتشر فى المناطق المدارية، وشبه المدارية من الكرة الأرضية، ومن أمثلتها : قرع الكوسة (أو الدباء) **(Cucurbita pepo)**، القرع العسلى **(Cucurbita maxima)** العجور، **(Cucurbita melo var. flexuosus)** الخيار، **(Cucumis sativus)** الشمام **(Cucumis dudaim)**، البطيخ، **(Citrullas lanatus)**، القاوون **(Citrullus melo)**، قرع الأوانى (أو قرع الزجاجة) **(Lagenaria siceraria or L. vulgaris)**، الليف **(Luffa cylindrica)**، والحنظل **(Citrullus colocynthis)**.

ولما كانت هذه النباتات كلها من النباتات العشبية، ومن ثم يصعب وصفها بالأشجار؛ لأنه من المتعارف عليه أن الأشجار لها سيقان خشبية قوية، قائمة بذاتها، واليقطينيات سيقانها طرية، وغير قائمة بذاتها، يمكن افتراض أن الشجرة التى أنبتها الله ـ سبحانه وتعالى ـ على عبده ونبيه «يونس بن متى» كانت شجرة خاصة تجمع بين صفات اليقطينيات وصفات الشجر، ولكن لما كان القرآن الكريم قد عبر بالتعبيرين شجرة وأشجار عن النبات عمومًا، كما عبر بالتعبيرين دابة ودواب عن عالم الحيوان بأكمله، لانرى حاجة لهذا الافتراض. وإن كان فى المنظور العلمى لا يوجد مايمنع اليقطينيات من إمكانية التواجد على هيئة شجرية، على الرغم من ضخامة ثمارها التى قد يصل وزن الواحدة منها إلى أكثر من عشرة كيلو جرامات، وقد أفلحت التجارب الزراعية بالفعل فى تحقيق نمو بعض النباتات العشبية فى هيئة قائمة إما بمساعدة الأسلاك بداخل الصوب النباتية، أو بالمعالجة ببعض الهرمونات، أو باستخدام بعض وسائط الهندسة الوراثية، فإذا كان الإنسان قد حققه فإنه لا يعجز رب الإنسان.

(وأنبتنا عليه شجرة من يقطين)

من المقطوع به أن الشجرة التى أنبتها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ ليظلل بها على عبده ونبيه يونس بن متى ﷺ، ويستره بأوراقها الكبيرة، ويداويه من سقمه بما فى

أوراقها، وزهورها، وثمارها، وأغصانها، وسيقانها، وعصائرها من مركبات هى شجرة خاصة معجزة، أنبتها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بأمره الذى لا يرد، إلا أن الصياغة القرآنية: شجرة من يقطين توحى بأن المقصود هو عموم اليقطين الذى نعرفه. وهنا يظهر التساؤل المنطقى: وماذا فى اليقطينيات من علاج للحالات المماثلة للحالة التى مر بها نبى الله يونس ﷺ بعد أن التقمه الحوت ولفظه بالعراء وهو سقيم، أى مريض منهك القوى؟

وقد حاول الأخ الكريم الدكتور كمال فضل الخليفة ـ الأستاذ المشارك لعلم النبات بجامعة الخرطوم ـ الإجابة عن هذا السؤال فى رسالتين جامعيتين تمتا تحت إشرافه للحصول على درجة الماجستير فى العلوم، وأعد موجزًا عن نتائجهما فى مقال بعنوان «اليقطينيات وقاية وعلاج وغذاء»، نشره فى العدد الرابع عشر من مجلة الإعجاز العلمى الصادر بتاريخ الأول من ذى القعدة سنة ١٤٢٣ هـ.

وفى هذا المقال ذكر الباحث أنه اختار أربعًا من اليقطينيات المشهورة فى البلاد العربية وهى: قرع الأوانى، والقرع العسلى، والعجور، والحنظل، وقام بزراعتها وتعهدها حتى أثمرت، وجنى ثمارها، وفى هذه المراحل المختلفة قام بتحضير مستخلصات من مختلف أجزاء هذه النباتات الأربع مستخدمًا كلاً من الماء، والكحول الميثانولى، والكلوروفورم فى كل حالة، وتم له اختبار تلك المستخلصات ضد أربعة أنواع مختلفة من البكتريا فأظهرت جميعها فعالية واضحة فى مقاومتها مع اختلاف درجة تلك المقاومة باختلاف نوع النبات، واختلاف الأجزاء المختارة منه، والسائل المستخدم فى عملية تجهيز المستخلصات، ونوع البكتريا التى استخدمت تلك المستخلصات فى إبادتها.

وكانت أعلى درجات المقاومة من المستخلصات المستمدة من الزهور بصفة عامة، ومن زهور وثمار الحنظل بصفة خاصة، ثم من أوراق القرع العسلى، وكان الكحول الميثانولى أفضل سوائل الاستخلاص.

كذلك أثبت الباحث الأثر الواضح لليقطينيات الأربع المدروسة فى مقاومة وطرد بعض الحشرات من مثل الذبابة المنزلية، وآفات المخازن، وفى الوقاية من الأمراض التى يمكن لهذه الحشرات أن تنقلها.

وقد ثبت أن هذه المقدرة على مقاومة الحشرات مردها إلى وجود العديد من المركبات الكيميائية المهمة التى لها تأثير وقائى وطبى واضح فى مقاومة وعلاج العديد من الالتهابات الجلدية وتقرحاتها، والأمراض التى يمكن أن تنتج عن ذلك. وقد ثبت بالفعل أن هذه المركبات الكيميائية لها تأثيراتها الفاعلة فى علاج عدد من أمراض الجهازين الهضمى والبولى، وفى مقاومة بعض الأمراض السرطانية ـ عافانا الله جميعًا منها ـ . هذا بالإضافة إلى القيمة الغذائية العالية لثمار اليقطينيات المأكولة، والقيمة الطبية للثمار التى لا تؤكل مثل ثمار الحنظل.

وهنا تتضح روعة الإشارة القرآنية المبهرة فى قول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ [الصافات: ١٤٦]. خاصة إذا أدركنا أن القرآن الكريم قد أنزل منذ أكثر من ألف وأربعمائة من السنين على نبى أمى ﷺ، وفى أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين. ، فمثل هذه الومضات النورانية فى كتاب الله أنزلها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ شاهدة له بطلاقة القدرة على الخلق، وعلى البعث، ومؤكدة ألوهيته، وربوبيته، ووحدانيته، وشاهدة للقرآن الكريم بأنه لايمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذى أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وتعهد بحفظه بنفس لغة وحيه ـ اللغة العربية ـ ، فبقى محفوظًا بحفظ الله كلمة كلمة، وحرفًا حرفًا على مدى يزيد على أربعة عشر قرنًا وسوف يظل محفوظًا بهذا العهد إلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها.

وتبقى هذه الإشارات العلمية فى كتاب الله حجة على أهل عصرنا وشاهدة لسيدنا محمد ﷺ بالنبوة وبالرسالة، وبأنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كان موصولاً بالوحى، ومُعلَّما من قبل خالق السماوات والأرض.

فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين الذى أرسله الله ـ تعالى ـ رحمة للعالمين، فصلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين وآخر دعوانا أن الحمدلله رب العالمين.

***